من تراب (٢٨٩) اذهب أنت وربك فقاتلا ! (*) الطريق!

يبدو لى من ممارسات الحياة، ومراقبة الأحوال والناس، أن بنى إسرائيل ليسوا أصحاب التفرد فى قالتهم لموسى عليه السلام : " اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون " !

دلّتنى التجارب على أن هذه الآفة باتت شائعة راسخة مستقرة فى بلادنا .. لا شىء أيسر وأسهل من التمنى، أما التعب والكد والمجاهدة لتحقيق الأمنيات فلا شأن به للمتمنى .. يكفيه أن يلقى بأمنيته لمن يتوسم فيه القدرة على إنجازها .. عليه هو إذن أن يذهب إلى ربه فيقاتلان لتحقيق المراد !

لم يكن جديدا أن ألاحظ هذه الظاهرة، ولكنها تفشت واستشرت حتى بين النخبة وصفوة النخبة .. معنى هذا أن النخبة ــ ومن ورائها المجموع ــ قد انسلتوا تماما عن الانتماء .. الانتماء للوطن وللمجموع وللمهنة أو الوظيفة أو النقابة .. وضعف أو وهن أو تلاشى الانتماء ظاهرة مرضية خطيرة تحجب المجموع عن العطاء، وتكتفى بمقاعد المتفرجين .. حتى الفرجة ربما انشغلوا عنها بهمومهم ورغباتهم الشخصية المحضة .. الأخطر من ذلك أن احتجاب النخبة والأكفاء بعامة يترك الساحة للطامحين بلا قدرات ولا كفاءات ولا إمكانيات، ويفتح المجال للطبل والزمر وطلاب المنافع والمنافقين ومحترفى " السبوبة " والمشتاقين للظهور فى الصورة مهما كان الكادر وأيا كان المضمون !!

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٦

تتعرض نقابة المحامينّ والمحاماة، وخذهما مثلا، لمنعطف خطير جدا سوف يهدم النقابة هدماً، ولعله قد هدمها بالفعل، ويقوض المحاماة نفسها تقويضا يحتاج إلى جهود عشرات السنين لإعادة بنائها إن نجح وكف المتداخلون عن إفساد الأمور !

المشهد الراهن الذى اغتيلت فيه النقابة، والجميع يرى ويبصر، وتغتال فيه المحاماة نفسها اغتيالا لا يرضى أحدا يحب هذا الوطن ويفهم فهما حقيقيا دور ورسالة المحاماة .. هذا المشهد لا علاقة له بالمحاماة ولا بأصولها وثقافتها وتقاليدها .. المؤسف أن النخبة بين المحامين، وهى تضيق بل وتتآكل يوما بعد يوم بفعل السن أو الرحيل أو الاعتزال أو الإمعان فى الانصراف للذات، تشاهد ما يجرى وتتحسر أو تعلن التحسر عليه، ثم لا تلبث أن تنصرف إلى ذاتها، تبكى أو لا تبكى على حال النقابة والمحاماة، ولكنها لا تخرج إن خرجت من القمقم إلاّ لتغسل يدها من القضية بالإلقاء بها إلى واحد مشفوعة بعبارة بنى إسرائيل الأثيرة : " اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون " !!

قعود النخبة هو الذى سلم النقابة والمحاماة للهاوية .. وما لا تدركه النخبة المكتفية بمؤسستها الخاصة ونجاحها الخاص وإقبال الشهرة والمال عليها، أن ذلك سوف يطولها فى النهاية ! .. وأنه يمس كرامتها مادام يمس كرامة المهنة ونقابتها، وأن استمرار انعزالها وتآكل دائرتها مع تزيد الأعداد الغفيرة للداخلين كل عام، دخولا مقرونا بحرمانهم من أبسط فرص العلم والتمرين والتدريب والتثقيف والممارسة، هذا التآكل والتزايد المقابل ــ يعنيان أن المشكلة تتفاقم، وأن الحل يبتعد، لأن الكتلة المتزايدة المحرومة حقيقة من المحاماة، تشكل فى النهاية أغلبية عددية تصويتية، يقع معظمها فريسة للخديعة والأوهام وأفاعيل تدخل فى دائرة الاحتيال، فتصدق أو تميل للتصديق متعلقة بالوهم لعل فيه مخرجاً من الاختناق الضارب من حولهم، أو تسلم إرادتها وأصواتها لمن لا يحسنون توظيفها فى الاتجاه الصحيح، لغلبة المنافع الصغيرة أو النظر الضرير، وتتراكم هذه الآفات

والسلبيات وتتزايد وتقوض الحاضر وقد قوضته وتلبد جو المستقبل بغيوم كثيفة لا سبيل لاجتيازها إلاّ بعزائم وهمم صادقة من محامين حقيقيين صادقين !

عار على أى محامٍ، ناهيك عن النخبة، أن يعطى ظهره للمحاماة التى أعطته وبوأته ما هو فيه، وعار عليهم أن تنهار مهنتهم وتقوض أركان نقابتهم وهم يتفرجون .. الحسرات التى يطلقونها من وقت لآخر ــ لن تصلح رتقاً ولن تنقذ السفينة الغارقة ! .. إن الذين يركبون المشهد الراهن غرباء عن المحاماة ورسالتها وعلمها وثقافتها وقيمها وتقاليدها .. والذى مكن لهم هو انكفاء النخبة على ذاتها وانصرافها عن شئون الدار .. لا يشفع فى حسر المسئولية عن هذه الكارثة التذرع بأفاعيل وتداخل الحكومة والحزب الوطنى، أو الأثر السلبى للكتلة التصويتية المصمتة للإخوان المسلمين .. فالفرقاء : الحكومة وحزبها، والإخوان ــ يستخدمون محامين، أغلبهم ممن ضاق عليهم الخناق فى المهنة ولا يجدون متنفسا لتحقيق ذواتهم فيها، وبعضهم من المتزلفين الطامحين المتطلعين إلى الصعود فى أروقة الحكم أو الحزب، وهؤلاء وأولاء منصرفون إلى مآربهم وأغراضهم ولا يعنيهم شيء من أمر المحاماة التى باتت من مهن الزمان الماضى !!!

رأيت فيما يرى النائم، حلم الزمن الجميل الفائت، يوم قال الأنصار لرسول القرآن عليه السلام : " لن نقول لك ما قاله بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون"!